افتتاحية العدد

المغالطة في فضاء الاحتمال

أ.د. محمد العمري

أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب

البريد الإلكتروني: medelomari@gmail.com

يمتد الخطابُ البلاغيُّ، بوصفه إنشاءً احتماليا، من أقصى حدود التخييل إلى أقصى درجات التصديق. تَحُدُّه عَتبتان افتراضيتان: عتبةُ الهَذَر، حيت ينعدم مفهوم النص، و عتبة البرهان والتجريب، حيثُ تُحسَم الخلافاتُ، وتُفضُّ المنازعاتُ بالعَدِّ والكيْل و الوزْن.

في هده المنطقة الشاسعة, في هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، المتنوعة التضاريس: من محيطات الخيال وظلماته، إلى فضاءات البيداء المكشوفة لأشعة العقل, يمتد الاحتمال بين الأقاويل المخيلة/الشعرية والأقاويل المصدِّقة/الخَطابية.

1- **المخيِّلُ** (من المنشئين)[1] هو صانعُ الصور (figures) - ومنها الأساطير- يَدَّعي الكذبَ و يُقيم القرائنَ على كذبه، ومع ذلك يظلُّ كلامُه يحتملُ الصدقَ، وقد يحاكم عليه، أو يترجَّح بين الصدق و الكذب، كذبُ يُراد له أن يَنفضحَ، وبذلك لا يبقى كذبا، إذ يُرادُ من مُتلقيه المفترض أن يعيش في البرزخ الذي عاش فيه الشاعر حين ضاق به الواقع ولم تسعفه اللغة. لم يسعفه الخطاب العلمي ولا الهذر والجنون. هذا هو منزع التخييل الشعري. و المنزع (أو النزوع) لا يساوي الانجاز، ولا يتطابق معه، دائما. فمنطقة "البين بين" أوسعُ مما عند "القطبين".

2- أما المصدِّق فهو مُجْتَلِبُ الحجج ومُستقطبُها. والحججُ منها ما هو رَخوٌ هَشٌّ لَيِّنٌ: يلتبس بالصور المخيلة المصنوعة، ومنها ما يسمو إلى مستوى البراهين اليقينية الأكثر واقعية، ومنها ما بينهما، وهو عمدة الإقناع وعموده، ومهما اكتسبتِ الحجةُ الخَطابية/البلاغية من قوة وقدرة على التيقين فإنها تظل احتمالية، وذلك لارتهانها بالأثر الذي يُراد إحداثُه في متلقٍّ يُطلبُ انخراطه في الدعوى، ومُستخبِر/مُستعلِم تتفاوتُ قدراته في تحصيل الخبرة. فالعبرة بالأثر. طالبُ الانخراط يَدَّعِي الصِّدقَ، ويُقيمُ عليه الحجة، و يجتهد في إبعاد الشبهة, يريد من متلقيه الخاص (المُسْتَمَع)[2] أن يخرج من البرزخ، أن يحسم أمرَه.

وبعبارة أخرى، ودفعا لكل لبس، نقول: لا يخرج الخطيب من منطقة الاحتمال حتى و لو حشَدَ أكثرَ الحُجج صلابةً وَ واقعية و منطقية، لأنه يَرْهَن خطابه بمُستَمِع له شروطه وأسبقياته وإكراهاته المقامية والمعرفية. فالأمر لا يتعلق بالدواء الموصوف لمرض مَا، مهما كانت نجاعتُه، بل يتعلق أيضا بحال المريض في حساسيته، ومدى احتماله لهذا الدواء أو ذاك، لهذه الجُرعة أو تلك. وهذا يفتح نافذة على البعد البيداغوجي للخطابة. الخطاب البيداغوجي مبني، بدوره، على تكييف المعلومة تبعا لحال المتلقي المعين, فمهما بلغ طموح الكونية والتيقين فإن الخطاب البلاغي يظل مرهونا بالبلوغ؛ قد يحققه فيكون هو هو، أو لا يحققه فلا يكون.

نتحدث، لحد الآن، في مستوى الجوهر والنزوع: الشعريُّ ينزع نحو التخييل، و الخَطابيُّ ينزعُ نحو التصديق, أما على مستوى الإنجاز فالتخييل والتصديق متداخلان في إقليم (région) واسع, التخييل والتصديق جناحان للبلاغة، يتوغلان في جدعها، ويلتصقان بعمودها الفقري, تخييل مُصدِّق، و تصديقٌ مُخيِّل , و كمال البلاغة في هذا التقاطع، ففيه أُنتجتْ الكلاسيكيات الخالدة.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

ما موقع المغالطة في هذه الخريطة؟

المغالطة "إيهامُ" الصِّدق لا على طريق الاحتمال، كذبٌ لا تقامُ عليه قرائن تُحيدُه وتنفيه, غرضُه الإيقاع عمداً في الخطأ، "خدعة" أو "خديعة" بدو تعقيب. و معنى ذلك أنها تصيبُ الخطابَ التصديقيَّ المقاميَّ الموجَّه إلى مُعين: مُستمَع auditoire. حقيقةً، ولا تُستعمل في الانزياح الشعري إلا مجازاً. فلا يمكن، مثلا، أن نَتَّهم شاعراً بالمغالطة إلا على وجه المجاز والاستعارة. يمكن أن يتهم بالخطأ في المعرفة، إن وقع.

يلتقي المغالطُ و الشاعرُ، من حيت الشكل، في الانزياح بالكلام عن مساره السياقي العادي، و يختلفان في استراتيجية الانزياح ومنحاه. و من هنا جاءت استعارة عبد القاهر الجرجاني لألفاظٍ تنتمي إلى معجم المغالطة للتعبير عن فاعلية الشعر وأثره في المتلقي. ومنها الاشتقاق من لفظ المغالطة نفسه: "تُغالط"، و من التوهم: "تتوهم" (وهو أساسي عنده)، ثم من الخديعة: "خودعت"، ومن "التعمية"، و"إخفاء المقصود". نجد هذه الألفاظ كلها في قوليه التاليين:

1- قال معلقا على التجنيس "المطرَّف الناقص" في بيت أبي تمام :

يَمُدُّونَ مِن أَيْدٍ عَواصٍ عَواصِمٍ تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ

قال: "وذلك أنك ***تتوهم*** قبلَ أن يَرد عليك آخرُ الكلمة - كالميم من "عواصم"، والباء من "قواضب" - أنها هي التي مَضتْ، وقد أرادت أن تَجيئَكَ ثانيةً، وتعودَ إليكَ مُؤكِّدة، حتى إذا تمكن في نفسك تمامُها، ووعى سمعُك آخرَها، انصرفتَ عن ظنك الأول، وزُلتَ عن الذي سبق من التخيُّل، وفي ذلك ما ذكرتُ لكَ مِن طُلوع الفائدة بعدَ أن يُخالطَك اليأسُ مِنها، وحصولِ الربح بعدَ أن ***تُغالَطَ*** فِيهِ حتى تَرى أنه رأسُ المال"[3].

2- وفي قوله معلقا على تشبيهات من قبيل قول "بعض العرب": "سَلبْنَ الظباءَ العيونَ": "فهذا كلُّه، في أصله ومغزاه، وحقيقة معناه، تشبيهٌ. ولكن كَنَّى لكَ عنه، ***وخُودعتَ*** فيه، وأتيتَ به من طريق الخِلابة في مسلك ***السحر***، ومذهب التخييل... بل هو في حدِّ لحْن القول ***والتعمية*** اللذين يُتعمَّدُ فيهما إلى إخفاءِ المقصود"[4].

و من هنا يُتهمُ الخطيبُ بالتضليل حين يبالغ في استعمال الصور المخيلة لتمرير موقف عن طريق المغالطة. فمن أمثلة ذلك قول زياد بن أبيه لأبي الأسود الدؤلي في الخبر المشهور: "رُدَّ على المرأة ولدَها، و دعْني من سجعك"5. فلم يفُتْ زياداً أن أبا الأسود حاول التمويه بالسجع ليُمرر مُغالطةً لفظيةً: أوهم أن "حَمْلَه" الولدَ، و"وضعَه" معادلٌ لِـ "حمل" المرأة وَ "وضعها"، حجةٌ بحجة. وشتان مابين الأمرين. ولذلك كَرَّتْ عليه المرأةُ بالنقْض، مُبينةً أن حملَها غيرُ حملِه، وَ وضْعَها غيرُ وضعه.

فإذا علمنا أن من الصور البلاغية ما يسمو إلى مستوى الحجة (مثل التمثيل والاستعارة والسخرية)، ومنها ما يلعب دور التهييء والإعداد لتقبُّل الحجة بتخفيف درجة التنبه والمقاومة (مثل الموازنات الصوتية)، فينبغي أن نُسلِّم بأنها قد تلعبُ الدورَ العكسي، أي التهييءَ لوقوع الغَلط. و بالمقابل فان الخطاب الشعري مُهددٌ بهيمنة التصديق، ومن ذلك ما قيل للكميت: ما أنت بشاعر، إنما أنت خطيب!

المغالطة علةُ البلاغة/الخطابية

علاقة مؤسسة البلاغة/الخطابية بالمغالطات والتطويع التحكمي (manipulation) كعلاقة مؤسسة الصحة (وزارة الصحة، و ما يتبعها من المصالح الطبية) بالمرض . وزارة الصحة توازي علم البلاغة، كلٌّ منهما ينشد الحالة الطبيعية، يهتمان، مبدئيا وظاهريا، بقواعد "الصحة" ومتطلباتها, ولكنهما يهتمان في الواقع بالوقاية من الأمراض عن طريق ملاحظة

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

الأعراض، ثم يتصديان للمرض بعد وقوعه. و الظاهر للعيان في عمل مؤسسة الصحة هو المستشفيات والمستوصفات، ومعارض الدواء (الصيدليات)، أي معالجة أمراض وقعتْ.

هذا هو الوضع الطبيعي، وقد يختل هذا النظام فيقف الجهدُ البلاغيُّ عند البعد النظري، كما يلاحظ من حال البلاغة اليوم، حيث الجهد منصب على المعرفة النظرية والتاريخية، على علاتها. أما معالجة الأمراض البلاغية فمتروك لكتاب التمائم، ومصدري الرقى الشرعية و غير الشرعية. دارسو البلاغة اليوم في واد، ونقاد الخطاب المغالط في واد، أكثرهم من الصحفيين غير المسلحين نظريا. وقد لاحظت هذا الاختلال مبكرا، فخصصتُ جانبا من عملي البلاغي لهذا البعد منذ 1979م، فكان من ثمراته كتب ومقالات، منها: دائرة الحوار ومزالق العنف، ومنطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين، وعوائق الحوار مع الأصوليين، والمحاضرة والمناظرة، وعشرات المقالات. بل لقد اقتنعت أن التنظير لبلاغة/خطابية عربية حديثة لن يكون مثمراً دون محاورة التاريخ، من جهة، والتطبيق على الواقع، من جهة ثانية.

البلاغة العربية، كما نعلم، بلاغة شعرية بالمفهوم الكلاسيكي للشعر، ولذلك لا نجد فيها اهتماما كبيرا بالمغالطات حتى في الحديث في البيان الذي تحول إلى بلاغة ثم إلى خطابية كما بينا في كتاب البلاغة العربية. الجهة التي اهتمت بالمغالطات في التراث العربي هم الفلاسفة قراء أرسطو، ومنهم استفاد اللاهوتيون (المتكلمون في العقائد). وتقوم هذه المعرفة على التمييز بين "المغالطات العامة" التي استدرك فيها بعضهم على أرسطو (الفارابي)، ودافع البعض عن تصوره (ابن رشد)، و "المغالطات الخاصة" بكل مجال مجال، و اختصاص اختصاص[6]. ونظرا إلى أن المغالطات العامة ناتجة – في مجملها – عن تعدد معاني الألفاظ التي ينزلق المغالط بينها، من جهة، واستعمال اللغة في الحقيقة والمجاز، من جهة ثانية، فإن مجال البحث فيا هو البلاغة العامة التي تستوعب كل مجال الاحتمال مما كان يدخل في الجدل، حسب التصنيف الأرسطي، إلى كل التفنيدات المدرجة في السفسطة. فالبلاغة هي المجال الواسع المستوعب لدراسة كل الانزلاقات الخطابية اللغوية (بل غير اللغوية : الحركية والإشارية").

وعليه فإن الخطابية المنطقية، أو نظرية الحجاج التي ترجمناها[7]، في أول لقاء بها – كما ترجمها غيرنا - بمصطلح "بلاغة" لم تهتم بالمغالطات ولا بالبعد السيكولوجي الأخلاقي (إيطوس) والانفعالي العاطفي (باطوس). فهذا البعد المنطوي على احتمال التمويه والمغالطة لا يدخل في استراتيجيتها المتجهه إلى المكتوب والكوني الميقن. فهي تدفع خطابية أرسطو نحو الجدل، وتبعدها عن السفسطة، ونحن نهتم، في البلاغة العامة، بالعيوب التي تشوب الخطاب الاحتمالي المؤثر شفويا ومكتوبا. نهتم بالعلاج أكثر من اهتمامنا بالوقاية، أو بهما على حد سواء.

ولذلك ينبغي الاحتياط من ترجمة كلمة ريطوريك (rhétorique) في هذا السياق، وداخل هذا النسق المنطقي، بكلمة بلاغة، لأنها مضللة وتوقع في التناقض. كما ينبغي الاحتياط عند ترجمتها بكلمة خطابة من الالتباس بجنس الخطاب ومتنه النصي المفهوم من قولنا: الخطابة العربية، حيث ينصرف المعنى إلى الخطاب الإنشائي وليس إلى الوصفي المقصود بالعبارة.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

البلاغة تصلح نفسها بنفسها

تُتَّهم البلاغة/الخطابية بالمغالطة والتطويع التحكمي المضلل la manipulatio ، و هذه التهمة تنطوي على مفارقة: لأن مَن يدفع بها لا يجد مَفَرا من استعمال البلاغة في تقديمها والدفاع عنها. ومعنى ذلك أن الأمر لا يتعلق بالبلاغة في جوهرها، بل يتعلق باستعمالها. فالقرآن الكريم الذي قال: " لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ..." هو نفسه الذي استعمل السخرية لتعرية الادعاءات الكاذبة والاعتقادات الفاسدة. فالمسالة تتعلق بنوع الاستعمال، من جهة، و تتعلق، من جهة ثانية، بكون البلاغة/ الخطابية تُصلح نفسَها بنفسها. فهي مثل الدواء و السلاح؛ إن استعمل في الخير كان الاستعمال خيراً، وإن استعمل في الشر كان شرا. الخير والشر في الاستعمال وليس في الأداة.

على أن يجب التنبيه إلى أن الاستعمالين ليسا على المستوى نفسه من حيث القابلية والقيمة؛ الاستعمال في الخير أفلحُ وأنجحُ على الدوام. لأنه مثل مقاومة تزوير العملات والطوابع، والفيروسات (في الإعلاميات)، الغلبة دائما لقوى الخير مهما بلغت عبقرية التزوير. والسبب في ذلك واقعي عملي، لا غيبي ولا افتراض. السبب في ذلك هو أنها علنية ومنظمة أي مؤسسية، وإيجابية قيميا (أي قيمة تداولية): محل الإشادة من الجميع، حتى المزوّرون و الطغاة لا يعلنون تزويرهم و طغيانهم، بل يشيدون بالفضيلة ويدعون العمل في اتجاهها فَيقَوى سلطانها، ويسهلُ الحشد في طلبها. و هكذا تُصلح البلاغةُ أعطابَها، وتعالج أمراضَها، فتنتصر على التزوير، والمغالطة صورة من صُور التزوير.

وتقتضي المسؤولية العلمية – ولا رادَّ لسُلطانها - أن نقفَ هنا عند تنقيص البلاغة لشبهة من نوع غريب تفردَ بها صديقُنا الاستاذ عبد الله الغذامي في كتابه النقد التقافي[8]. فهو يعتبر البلاغةَ مُضللةً في نهاية المطاف! لا يلتمسُ تضليلَها في المغالطات الخَطابية القائمة على الانزلاقات المضللة، بل يَلتمسُه في حلاوة اللفظ، الحلاوة التي شبهها بحلاوة الشحم، فالبلاغة عنده مثل الشحم يقتل بحلاوته. وقد ربط تلك الحلاوة بصناعة الفحولة والبطولة، من امرئ القيس إلى أدونيس (و هو المستهدف الأول عنده)، ثم نزار قباني، وصولا إلى صدام حسين، رحمه الله. فهو عنده نتاجٌ بلاغي.

المستهدف أساسا في كتاب النقد الثقافي هو النقد الأدبي، فرغم الإعلان عن أن النقد الثقافي ليس بديلا له، فإن استمرارَه، وقيامَه على الكفاءة الوصفية والتداولية التي توفرها له البلاغة فإنه يترك النقد الثقافي بدون موضوع. ولذلك استَغل الوضع الشاذ الذي كانت عليه البلاغة المدرسية للإجهاز عليها دون تحفظ. وإذ لا يمكن اتهام الأستاذ الغذامي بعدم الاطلاع على بعض ما جرى في الغرب، ويجري في العالم العربي، من جهود لبناء بلاغة عامة، لا يمثل النقد الثقافي أكثرَ من بُعد تفسيري في بنائها، فالأقرب لتفسير موقفه هو إغراء النموذج. وقد ظهر التصور الاختزالي للبلاغة في حواره مع عبد النبي صطيف أكثر من ظهوره في كتاب النقد الثقافي.

"التخليط بين المغالطة والتغليط"[9]

تعلمتُ من ممارسة "نقد الخطاب الإقناعي" أن بعضَ ما نراهُ مغالطةً ليس إلا غَلَطاً، أو سوءَ تعبير يؤدي إلى تغليط الآخرين. والذي يحشر هذا النوع من الخطاب في نطاق المغالطة هو أنه يأتي في سياق مشحون يرجح سوء النية. والراجح أنه ناتج عن ضغط نفسي قاهر يدفع الخطيب في اتجاه ما يرغب فيه، ما يسكنُه ويهيمنُ عليه دون رَوِيَةٍ أو اعتبار. ويمكن أن نسميه مغالطات سيكولوجية تحل فيها "الرغبة" محل "النية" المسبقة، فهي "نية لا شعورية". ويصل هذا المنحى النفسي مداه حين يغالطُ الخطيبُ نفسَه، فيرى ما لا يُرى، ويسمع ما لا يسمع. وهذا الهذيان كثير في الخطاب الوعظي والدعوي التحريضي، وفي خطاب بعض الشخصيات المذهبية الفِرَقية التي يكاد المرء ألا يفرق بين الجد والهزل فيما تتوهم وتدعي. وهذا الخطاب مبني على إعنات صريح مدعوم باختلاق الأخبار والقصص.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

وقد عرضتُ لبعض هذا في كتاب دائرة الحوار، وقدمتُ صوراً منه في كتب عوائق الحوار تحت عنوان: "التخليط بين المغالطة والتغليط" (ص26-44). وتحته عناوين فرعية: "التباس المغالطة بالغلط"، "من المغالطة إلى الإعنات" ، "الاختلاق"، الفجور في الخصومة". ويتبين من هذه العناوين أن المغالطة عنصر من عناصر العنف الخطابي، يبدأ بالتوهيم، وينتهي بالإعنات الفج.

ينطوي الخطاب المغالط على استخفاف بالمتلقين، ولذلك فإن أقوى الردود عليه ما واجهَ استخفافا باستخفاف، أي ما بني على السخرية. فبدل رد فعل منفعل - قد يكون المغالط في انتظاره - يقوم الرد الساخر على إرخاء العنان، ومد الحبل حتى تفتضح المغالطةُ أمام نفسها، وتشمئز من مظهرها ومخبرها.

الهوامش:

1 - الإنشاء هو الجنس الأعلى للنصوص المخيلة والمصدقة، الشعرية والخطابية. وهو مفهوم ضروري لا يمكن الحديث عن البلاغة العامة في غيابه.

2 - "المُستَمَع"، على وزن المجتمع: مستمعون في مكان وزمن محددين. ترجمة لمصطلح auditoire. وهو أخص وأدق من المقام situation.

3- أسرار البلاغة. تح. شاكر 52.

4 - نفسه. تح. شاكر.376.

5 - جرى بين أبي الأسود الدؤلي وزوجته خلاف حولَ حضانة ابنهما، فتحاكما إلى زياد ابن أبيه. فقالت المرأة :

- "أصلح الله الأمير ، هذا ابني كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه، أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل كذلك سبعة أعوام، فحين أمّلت نفعه، ورجوت دفعه، أراد أخذه منّي قهراً.

- فقال أبو الأسود : أصلحك الله، أنا حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه.

- فقالت المرأة : صدق أيّها الأمير، ولكنّه حمله خفّاً، وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة، ووضعته كرهاً.

- فقال زياد : ارُدد على المرأة ولدها، فهي أحقّ به منك، ودعني من سجعك".

(سبق أن قدمنا هذه المحاكمة في كتابنا: في بلاغة الخطاب الإقناعي).

6 - ينظر تلخيص السفسطة لابن رشد.

7 - نقصد ترجمة : كتاب بيرلمان وأولبريشت: Traité de l'argumentation, La nouvelle rhétorique

وكتابه L'empire de L rhétorique. وهو تلخيص للأول.

8 - لا يتسع المقام لربط هذا الموقف بمواقف قديمة، مثل موقف أفلاطون. ومن التمس ذلك وجدَ له وجها. ولكن محاولة ربط الاستبداد بالبلاغة من خلال الفحولة الشعرية قابلةٌ للتفسير بوضع المثقف الخليجي الحامل لثقافة غير متلائمة مع سقف الحرية المتاح.

9 - هذا عنوان مبحث من الفصل الأول من كتابنا عوائق الحوار. ص 26- 44.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548